الإنسان والفكر

2017/4/5

الإنسان هو صانع الفكر، ولولا الإنسان لما كان هناك فكر أو تقدم، فالحيوانات مثلا ليس لديها فكر، ولذا لم تتقدم؛ كما وأن الأغلبية الساحقة من البشر لم تصنع فكرا في الماضي أو الحاضر، وإنما كانت مستهلكة له، ما جعلها تقوم باستخدام الفكر أداة للتعامل مع أمور حياتية شتى. وهذا يجعل الفكر اهم من صانعه؛ لذلك يموت المفكرون بعد عمر قد يطول، فيما يعيش فكرهم أحيانا آلاف السنين من بعدهم. وعلى سبيل المثال، ما يزال أفلاطون الذي ولد قبل نحو 2500 سنة يعيش بفكره معنا؛ وكذلك هو الحال بالنسبة لابن رشد الذي ما تزال افكاره التي دعت إلى إعلاء شأن العقل تعيش معنا، وتثير الخلافات فيما بيننا بعد نحو 9 قرون من موت صاحبها.

ويشير التاريخ إلى أنه كلما كان المفكر أصيلا في فكره، وأمينا في التعبير عن آرائه، كلما كان عدد المناوئين لأفكاره أكبر من عدد المؤيدين لها، وذلك لأن الفكر الجديد يشكل تحديا كبيرا للفكر القديم قد يتسبب في إفلاسه؛ الأمر الذي يدفع الفكر القديم وأصحابه إلى إعلان حالة الطوارئ، واستخدام كل أدوات القمع المتاحة لمحاربة الفكر الجديد وصاحبه؛ وهذه تشمل التشكيك في سلامة الفكر، والعمل على النيل من مصداقية صاحبه، وحرمانه من الوصول إلى أكثر الفئات الاجتماعية حاجة لفكره، واغتيال شخصيته أحيانا. لذلك نلاحظ أن أعظم المفكرين في التاريخ العربي والاوربي القديم ماتوا قبل ان تشتهر أفكارهم وتنتشر على نطاق واسع بين البشر.

كان الحكام المستبدون في الماضي يقومون بقتل المفكر، وحرقه أحيانا؛ فابن المقفع أمر الخليفة المنصور بقطع يديه ورجليه، وفصل رأسه عن جسده وحرق الجسد في النار. مع ذلك، فشل حكام ذلك الزمن في إدراك حقيقة هامة، وهي أن الفكر لا يموت، ما جعل المفكر يموت ويعيش فكره. أما المستبدون في عصرنا هذا من حكام وايديولوجيين فقد تنبهوا لهذه الحقيقة، ما جعلهم يقومون بقتل براعم الفكر قبل أن تُزهر، فالكتب غير المرغوبة تُسحب من الأسواق وتُحرق، والمفكر المجدد الذي يدعو إلى الحرية والرجوع إلى العلم والعقل يحارب ويُحرم من الوصول إلى الجماهير التي تعيش في ظلمات القهر والكبت والفقر. ولهذا يوجد لدى كل قناة تلفزيونية عربية صالونين لاستقبال ضيوفها: الأول لسجن الفكر في زنزانة مُظلمة، والثاني لاستقبال الجهل بحفاوة مُخجلة.

ما الفرق بين العقائدي والايديولوجي؟ العقائدي يؤمن بعقيدة دينية تقوم باقصاء الآخر، أو بعقيدة قومية تقوم بالتفرقة ضد الآخر، أو بعقيدة ماركسية تقوم بنفي الفكر الآخر، أو بعقيدة رأسمالية تقوم باستغلال الآخر. اما الايديولوجي فهو عقائدي ينتمي لحركة سياسية قامت بتحويل عقيدته إلى أداة تستهدف إعادة تشكيل المجتمع بناء على الصورة الخيالية التي رسمتها العقيدة. الأمر الذي يجعل كل ايديولوجي عقائدي، فيما لا يجعل كل عقائدي ايديولوجي، فغالبية المسلمين مثلا لا تؤيد حركات الإسلام السياسي ولا تنتمي إليها. مع ذلك، يعيش العقائدي والايديولوجي حياته

في جاتو ثقافي يحرمه من القدرة على رؤية العالم على حقيقته، الأمر الذي يجعله عالِماً يُحسن تفسير طلاسم عقيدته والدفاع عن جرائمها، وجاهلا في أمور الحياة وعلوم الدنيا. ولما كان كل ايديولوجي يملك سلاح العقيدة ونعمة الجهل، فقد أصبح حاكما مستبداً، بغض النظر عن كونه رئيس دولة، او أستاذ جامعة، او عاملا بسيطا لم يقرأ كتابا، أو "مثقفا"يدعي الوطنية والايمان بالديمقراطية. إذ لم أصادف في حياتي العلمية والاكاديمية والعملية مثقفا عربيا واحدا يطالب بالديمقراطية إلا وكان مستبدا، فالديمقراطية بالنسبة له شعار وليس ممارسة.

إن ايمان إنسان بفكر عقائدي ديني أو غير ديني، وعدم اخضاع فكره لمنطق العقل والعلم، يجعل الإنسان هذا يتمسك بموقف يتململ في مكان فيما يعيش خارج الزمان؛ الأمر الذي يتسبب في جعله موقفا مُفرغا من الفكر، مُفعم بالجهل. ومع ان التمسك بمبادئ امر نبيل، إلا أن الموقف ليس فكرا ولا حركة بحد ذاته، وبالتالي لا يستطيع أن يسهم في تغير واقع، وإنما يحرم صاحبه من حرية التفكير والعمل وأخذ زمام المبادرة. لذلك يتصف صاحب الموقف المبدئي بالاستبداد والتحجر. أما أصحاب المواقف من عرب المهجر الذين تتصف غالبيتهم بالجهل، فتأتي مواقفهم المبدئية في العادة مقرونة بالادعاء بأنهم يؤمنون بالديمقراطة؛ الأمر الذي يجعل ديمقراطية الجهل المنبثقة عن عقيدة أقسى دكتاتورية، تحكم على الفكر بالإعدام، وعلى العقل بالنفي، وعلى الإنسان بالتخلف.

الفكر والموقف المنبثق عن مبادئ قد تكون عظمية، لا يصنع تاريخا إلا إذا تحول إلى حركة اجتماعية سياسية تسعى لتغيير الواقع. الأمر الذي يجعل الفكر والموقف هذا يتحول مع تتابع الأيام وتقادم الزمن إلى طوباوية عدمية. أما الحركة التي تحاول تغيير واقع في غياب فكر يُؤطرها ويهديها، فهي بمثابة شخص يسير في الظلام على امل أن يصادفه بعض الحظ. الفكر الاستراتيجي بحاجة لحركة، والحركة بحاجة لفكر استراتيجي. ولهذا فشلت حركات الربيع العربي لأنها انطلقت في غياب الفكر، وفشلت أفكار ابن رشد ومواقف عبد الناصر لأنها لم تتحول إلى حركات اجتماعية سياسية.

حين عقد المجلس الوطني الفلسطيني آخر اجتماعاته التي اتصفت بحرية الرأي في الجزائر عام 1988، اعتذرت عن المشاركة، لكنني أرسلت دراسة فكرية، وُزعتْ على كافة المشاركين، عنوانها: "الصبر الاستراتيجي والذكاء التكتيكي". وأذكر هنا فكرتين مما جاء في تلك الدراسة التي تجاوزت 20 صفحة. الأولى تقول إن العقل الغربي عامة والأمريكي خاصة يتصرف بناء على معادلة "تعظيم المكاسب وتقليل الخسائر"؛ تعظيم المكاسب حين تكون فرصة الربح مُتاحة، وتقليل الخسائر حين تكون الخسارة حتمية. أما الثانية فتقول إن السياسي الأمريكي عنجهي بامتياز، يملك عناصر العنجهية التي تتكون من الجهل واسباب القوة؛ الأمر الذي يجعله حاكما مستبدا لا يتمسك بمبادئ، ولا يفهم معنى الكرامة، فكرامته تخدم مصلحته، ومصلحته هي الدين الوحيد الذي يؤمن به.

د. محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com